المحاضرة الثالثة: نتشه (تابع)

وبعد هذا النقد الذي وجّهه نتشه إلى قيم الحضارة الغربية منذ سقراط، وبعد إلحاحه الشديد على ضرورة تجاوز الميتافيزيقا، وإعلان "أفول المتعالي"،حيث كان يهدف بذلك إلى تعرية الغريزة البشرية في الأخلاق خاصة، بعد كل هذا كان عليه أن يحدّد لنا فلسفته الإيجابية ونظرته إلى الحياة، وإلى الإنسان الذي لاحظ أن خصائصه لم تتحدد بعد. في كتابه" ما وراء الخير و الشر" يقول نتشه أن تجواله ورحلاته بين أنماط و أنواع الأخلاق العديدة التي سادت على الأرض وما نزال، جعلته يقف في النهاية على نوعين أساسيين متمايزين من الأخلاق: أخلاق السادة و أخلاق العبيد. أو أخلاق الأرستقراطي النبيل وأخلاق العبد الضعيف. الأولى حافلة بالانتصارات لأن "الأرستقراطي محب للغزو، ومعتز بقوته، وهو يمضي قدما نحو المستقبل لا يحفل إطلاقا بمصاعب الحياة ولا بنعيمها، لأنه لا يخاف من الحرب كما لا يرغب في السلام. إنه يجد النعيم في الانتصار و القوة و التحطيم، و يشعر بسرور عميق و هو يعذب الآخرين، وما يقدم له من شر يقابله بالمثل بل بأضعافه، وهو يقدس التقاليد والماضي و يتخذ من ذكرياته مجالا للتفاخر و ينبوعا للقوة. لذا فهو يوقر أجداده و يقدم القرابين لأرواحهم". وهو إن ساعد المحتاج فلأن قوته تعظم لتفيض على غيره وليس بدافع الرحمة و الشفقة، وعفوه عن الأعداء ناتج على تمكّنه منهم وقدرته عليهم لا خوفا منهم أو حبّا في السلام. و بالمقابل فإن أخلاق العبيد تتميز بالضعف، لأنها مخلوقة من ضعف، فالرجل الصالح عند هؤلاء هو الرجل المتواضع المتسامح، الذي يحبّ السلام و يحبّ الآخرين، و "الرحمة" عنده أسْمى القيم الخلقية و أعلاها،بل إن هذا النوع "يقلب القيم فيسمّي "العجز" "إحسانا" و "طيبة"، ويسمّي عدم قدرته على رد الفعل مباشرة و بالمثل "صبرا"، و يعدّ "الصبر" من أمّهات الفضائل، ويسمّي حاجته إلى الآخرين و عجزه عن الاعتماد على نفسه "رحمة"، ويسمّي عجزه عن إدراك المطامع السامية و البحث عن المطالب العالية "تواضعا". وهذا النوع يقنع بسعادة زائفة لا وجود لها أصلا، ولئن مجّد الرحمة و السلام و الصبر و الاجتهاد و الخنوع و اللطف فلأنها الأنفع له في حياته. لذلك "فإن أخلاق العبيد هي في جوهرها أخلاق منفعة".

وتتسع الهوة بين أخلاق السادة و أخلاق العبيد إلى درجة أن أخلاق العبيد تزدري أخلاق السادة. فالخير حسب العبيد هو "اللاخطر" يمثّله الإنسان ذو القلب الطيب والسريرة الصافية ، الذي يكون خداعه أمر سهل لما يلتصق به من غباء، ومجمل القول أن خلق القيم هو حق للأسياد، أما الإنسان العامي فليست له من القيمة إلا ما يقرها له أسياده. وتنشأ ثورة العبيد على السادة نتيجة ما يسميه نتشه بـ " الذحل" Ressentiment وهو الشعور المتكرر بإساءة سابقة تعرض لها الإنسان، ولم تكن له القدرة على ردّها أو التصدي لها ومواجهتها، فتشتدّ في نفسه وتصبح مصدرا خلاقا، ودافعا قويّا للانتقام. وهكذا فإن أخلاق العبيد لا تظهر إلا حينما تجد ما يُضادّها. ويعتقد "نتشه" أن اليهود أول من مثّل أخلاق العبيد و ثورتهم. فشعور اليهود بالاضطهاد من طرف غيرهم هو الذي مكّن للمسيحية بعد ذلك أن تنتصر و تسود، مع العلم أن المسيحية هي صورة أخرى لليهودية فقط. كان على نتشه أن يبين لنا القيم الجديدة التي أتى بها، و التي تتحدد بمفهومه للخير و مفهومه للشر. فالخير عنده كل ما يصدر عن إرادة القوة، و الشر كل ما يصدر عن ضعف. ومن ثم تتحقق سعادة الإنسان في وجود "القوة" و نموها و زيادتها. الوجود عنده حياة و الحياة ليست سوى إرادة القوة. و بقدر ما يشعر الإنسان بالقوة يزداد إدراكه لوجوده و شخصيته. يقول نتشه:« ...أن تحيا يعني أن ترمي بعيدا عنك شيئا يموت، أن تحيا يعني أن تكون قاسيا، متعنتا في كل ما يضعف فينا و يموت». ومعنى هذا أن الحياة رغبة في النمو و الاستيلاء، لذلك فهي تبحث عمّا يخالفها، و في صراعها و كفاحها مع كل ما يقف في طريقها، وفي تغلبها عليه تعبّر عن نفسها، وتكشف عن ملامحها. ومن هنا كانت "إرادة القوة" هي مقياس القيم في الحياة. و يهيب نتشه بإرادة القوة ليجعلها ماهية الوجود. فلقد "تيقن وجود إرادة القوة في كل حي، بل حتى الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة، لأن في إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوي على الضعيف". و حياة الأقوياء غزيرة خصبة بينما حياة الضعفاء جوفاء شاحبة ة باهتة. فإذا كان الأقوى يعرض نفسه للخطر في سبيل قوته، و يجازف بحياته ليشق طريقه بين الأخطار و الصعاب، "فإن الضعيف يقنع بالاستسلام للقوي".